Issn:2437-0967 مجلة اللغة الوظيفية المجلد8،العدد2 2021

الانسجام النّصي في شعر الصّعاليك

The textual harmony in the Poetry of the Stamps

قاضي سهام[*(1)]

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة،(الجزائر)

البريد الإلكتروني: sosomorina31@gmail.com

بن سعيد محمد[(2)]

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة،(الجزائر)

البريد الإلكتروني: bensaid-m@hotmail.com

تاريخ الإرسال:2021/07/21	تاريخ القبول:2021/12/13	تاريخ النشر:2021/12/28

الملخص:

يُعتبَرُ الانسجام النّصّي أحد المعايير النّصيّة السّبع الّتي قام بتحديدها كلّ من "دي بوجراند" و"دريسلر"، فهي تميّز النّصّ من اللّانص، بل وتُعدّ من أهمّ العناصر الّتي بها يتحقّق تماسك النّصوص، والسّبب في ذلك عائد إلى كون الانسجام يتعدّى مستوى البنيّة السّطحيّة (الشّكل) إلى مستوى أعمق وهي البنية الدّاخليّة (المعنويّة)، فهو يُعنى بالعلاقات الخفيّة (الدّلاليّة) الّتي يبذل فيها المتلقّي جهدا للكشف عنها وتأويلها من أجل القبض على مضمون النّصّ، ولا يتأتّى ذلك إلّا من خلال آليّات تعمل على تنظيم وتسهيل عمليّة التّأويل ومن بين تلك الآليّات نذكر: موضوع الخطاب، التّغريض، المعرفة الخلفيّة، السّياق، وهذه أهمّ الآليّات الّتي تستطيع الحكم على انسجام النّصوص وتماسكها، كما ولها القدرة على تحديد وإبراز قدرة المتلقّي في فهم النّصوص.

الكلمات المفتاحية: الانسجام؛ التّماسك؛ النّص؛ المتلقّي؛ التّأويل.

الملخص باللغة الأجنبية :

The textual harmony is one of the seven criteria identified by "De Beau Grand" and "Dressler" as it distinguishes the text from non-text and it is one of the most important elements by which coherence of text is achieved and the reason for this is due to the fact that

[*] قاضي سهام

harmony goes (form) to a deeper level, which is the internal structure (the moral) and this is concerned with the hidden (semantic) relationships in which the receiver makes an effort to reveal and interpret them in order to capture the content of the text and this only comes through mechanisms that work to organize and facilitate the process of interpretation, Among those mechanism We mention: The subject of discourse, The prejudice, The consistency Knowledge background, The context, These are the most important mechanisms that can judge the consistency and cohesion of texts, and have the ability to identify and highlight the receiver's ability to understand texts.

مقدمة:

لا شكّ أنّ نحو النّص (لسانيّات النّص) يتعامل مع النّص ويدرسه في ضوء وحدته اللّغويّة الكبرى، بحيث تعدّ المفارقة اللّسانيّة من أهمّ طرائق دراسة النّص، ذلك أنّها تعتمد على ترابط وتلاحم أجزاء النّص الواحد، كما وتهدف إلى تحليل العناصر المكوّنة للنّص وإيجاد القواعد الّتي بُني عليها، ومن المعايير الأساسيّة التّي تقوم بهذه الوظائف: معيار الانسجام، فلهذا المعيار صلة وثيقة بالنّص جعلته يعزّز مكانته في خضمّ الدّراسات، فهو معيار يقوم على ترابط الجمل في النّصّ الواحد بواسطة وسائل معنويّة، تؤدّي مؤدّاها على مستوى البنية العميقة للنّصّ، وليست تلك هي العلاقة الوحيدة، لأنّه في الحقيقة تربطه علاقة وثيقة أيضا بالمتلقّي لأنّ هذا الأخير وبتوفّره على الأدوات اللّازمة يستطيع فهم وتأويل النّصّ أيّا كانت نوعيّته ورتبته، وبالتّالي حاولت الباحثة رصد وتتبّع أدوات الانسجام في محاولة منها لحصرها وتصنيفها وبيان وظائفها، معتمدة في ذلك على قصائد الصّعاليك في العصر الجاهلي، محاولة الإجابة على الأسئلة التّاليّة: ما هي أهم الآليّات المساعدة على انسجام هذه القصائد؟ وهل يجب أن تتوفّر كلّ هذه الآليّات في نصّ واحد كي يصبح متماسكا؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة اتّبعت المنهج والوصفي التّحليلي، لوصف قصائد الصّعاليك وحتّى الموضوعات الّتي ألهمتهم، ولتحليل مضامينها مستعينة في ذلك بأهمّ آليّات الانسجام المتمثّلة في: موضوع الخطاب، التّغريض، المعرفة الخلفيّة، والسّياق.

2.الانسجام

1.2 مفهوم الانسجام:

لقد أولى العلماء النّصّانيّون الانسجام أهمّيّة بالغة، فإن قلنا الانسجام فإنّنا نسلّط الضّوء على المتلقّي وقدرته على التّأويل وإمكاناته في الكشف عن الدّلالات الكامنة والمضمّنة في النّصوص والخطابات، «فهو لا يتعلّق بمستوى التّحقّق اللّساني ولكنّه يتعلّق بالأحرى بتصوّر لمتصوّرات الّتي تنظّم العالم النّصّي بوصفه متتاليّة تتقدّم نحو النّهاية، يضمن الانسجام التّتابع والاندماج التّدريجي للمعاني حول موضوع الكلام، وهذا يفرض قُبولا متبادلا للمتصوّرات الّتي تحدّد صورة عالم النّص المصمّم بوصفه بناءً عقليّا» (منذر، 2004م)، ولهذا ذكر دي بوجراند أنّه يجب التّمييز بين الاتّساق باعتباره نصيّة قائمة على

الصّياغة، لذا فهو من مظاهر النّحويّة، والانسجام باعتباره نصّيّة مبنيّة على نقل المعلومات، لذا فهو يمسّ مظاهر المقبوليّة (محمد، 1421هـ- 2001م).

وهذا ما يؤكّده "براون ويول" فهما يريان انسجام الخطاب كشيء يبنيه المستمع القارئ، بعد تقبّله إيّاه واستوعابه، معتمدا في ذلك على استحضار تجاربه السّابقة وكذا القيام بعمليّات ذهنيّة معقّدة هي أشبه بالبرمجيّات الّتي يقوم بها الحاسوب، ويَنفيان المقاربات والدّراسات السّابقة الّتي ترى أنّ الانسجام شيء مُعطى (محمّد، 1991م).

أمّا في تعريف "هاليداي"و"رقيّة حسن" للانسجام، فيقولان: «يتطلّب بناء الانسجام من المتلقّي صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفيّة الّتي تنظّم النّص وتولّده، بمعنى تجاوز رصد المتحقّق فعلا (أو غير المتحقّق)، أي الاتّساق إلى الكامن الانسجام» (محمّد، 1991م)، ومن هنا نستنتج أنّ الاتّساق يكون خطّيّا أمّا الانسجام فيكون عموديّا عبر علاقات خفيّة الكشف عنها محصور بقدرة المتلقّي.

وعن ما سلف ذكره في الفرق بين الاتّساق والانسجام، فإنّ الانسجام يُعنى بالجانب الدّلالي المتمثّل في الكشف عن العلاقات الخفيّة (المُضمّنة) في النّصوص يؤوّلها القارئ معتمدا في ذلك على آليّات ومظاهر خاصّة بتحليل الانسجام.

2.2 آليّات الانسجام النّصّي

1- موضوع الخطاب.

2- التّغريض (التّيمة).

3- المعرفة الخلفيّة (الأُطر/ التّأويل).

4- السّياق.

3.الدّراسة التّطبيقيّة للانسجام النّصي في شعر الصّعاليك

1.3موضوع الخطاب:

اهتمّ كلّ من "فان دايك" و"براون ويول" بموضوع الخطاب واعتباره أمرا أساسيّا في انسجام الخطاب، كونه المبدأ الأساسي والمركزي الّذي ينظّم قسما كبيرا من الخطاب، ويمنح القدرة للمحلّل بأن يفسّر، كما يسمح له بأن يعرف سبب اعتبار الجمل والأقوال متآخذة كمجموع من صنف ما منفصل عن مجموع آخر، ويمكّنه أيضا من تمييز الأجزاء الخطابيّة الجيّدة والمنسجمة من تلك الّتي تعدّ حدسيّا جملًا متجاوزة غير منسجمة. (محمّد، 1991م)

فمثلًا "فان دايك" يعدّ موضوع الخطاب إيرادًا للمعلومات السّيمانطيقيّة وتنظيمها وترتيبها لتشكّل تراكيب متواليّة يمكن اعتبارها ككلّ شامل (تون، 2000م)، ويصفه بأنّه بنية دلاليّة يتمّ بواسطتها انسجام الخطاب، تعتمد على حدس المتلقّي (محمّد، 1991م)، إذن هو أداة إجرائيّة حدسيّة.

ومن أجل تحليل موضوع الخطاب والوصول إليه يجب أوّلا أن يُقسَّمَ الخطاب إلى سلسلة من الوحدات الصّغرى حسب موضوعها، ذلك أنّه لكلّ منها موضوع مستقلّ، ومن أجل تحديد هذه الوحدات الصّغرى لا بدّ من وجود نقطة معيّنة بين مقطعين خطابيّين تجعلنا ندرك حدسيّا أنّ لهما موضوعين مختلفين، ويكون الانتقال عندها من موضوع معيّن إلى الّذي يليه مُعلّمًا بعلامة ما كالتّحوّل الحاصل في الإطار الزّمني والمكاني، أو تغيّر الحدث، أو الشّخص المُتحدّثِ عنه (عزّة، 1430هـ- 2009م).

يقول تأبّط شرّا (شرّا، 1404هـ- 1984م):

1- إذَا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جـــدَّ جِـــدُّهُ أَضاعَ، وَقَاسَى أمْرَهُ وَهوَ مُدْبـــــرُ.
2- وَلَكِنْ أَخُو الحَزْمِ الّذي لَيْسَ نَـــــازِلًا بِهِ الأَمْرُ، إلَّا وَهُوَ للأَمْرِ مُبْصِـــرُ.
3- فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ، مَا عَـــاشَ حُـــوَّلٌ إذَا سُدَّ مِنْهُ مِنْخَرٌ جَاشَ مِنْخَـــــرُ.
4- فَإِنَّكَ لَوْ قَاسيْتَ بِاللّصبِ حِيلَـــــتِي بِلَحْيَانَ، لَمْ يَقْصُرْ بِكَ الدَّهرُ مَقْصَرُ.
5- أَقُولُ للَحْيَان وَقَدْ صَفِـــرَتْ لَهُـــــمْ عِيَابِي، وَيَوْمِي ضَيِّقُ الحجْرِ مُعْـوِرُ.
6- لَكُمْ خصْلَةٌ: إمَّا فِـــــــدَاءٌ وَمِنَّـــةٌ، وَإمَّا دَمٌ، والقَتْلُ بِالمَرءِ أَجْـــــــدَرُ.
7- وَأُخْرَى أَصَادِي النَّفْسَ عَنْهَا، وَإنَّهَـــا لَخُطّةُ حَزْمٍ، وَإنْ فَعَلْتُ، مَصْـــــدَرُ.
8- فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي، فَزَلَّ عَن الصَّفَـــا بِهَا جُؤْجُوءٌ عَبْلٌ، وَمَتـــــنٌ مُخَصَّرُ.
9- فَخَالَطَ سَهْلُ الأَرْضِ، لَمْ يَكْدَحْ الصَّفَا بِهِ كَدْحَةٌ، وَالمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْـــــظُرُ.
10- فَأُبْتُ إِلَى فَهْمٍ، وَمَا كـــــدْتُ آيِبًـــا وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَصْفِـــــرُ.

المتمعّن في القصيدة تجعله يستخلص مجموعة من الجمل الّتي تحدّد موضوع الخطاب، فعلى سبيل المثال الشّاعر افتتح قصيدته بما هو عامّ وعبّر عنه بعبارة (المرء)؛ أي الإنسان أيّا كانت صفته وجنسه ومرتبته في المجتمع، ولكن السّؤال المطروح: ما به هذا المرء (الإنسان)؟ وجواب السّؤال: يجب عليه أن يحتال وأن يجدّ ويتعب وإلّا فإنّه سيعاني ويقاسي مصاعب الحياة ونوائبها، وقد عبّر عن ذلك الأمر بعلاقة دلاليّة تمثّلت في الشّرط وجوابه فشرط الحياة الكريمة للمرء، هو الاحتيال والجدّ والعمل، فارتبطت بهذا الموضوع العامّ وحدات متّصلة وأجزاء تخاطبيّة حدّدت ورسمت معالم القصيدة نرتّبها كالتّالي في شكل بنيات:

البنية الأولى : (البيت الأوّل).

يستهلّ الشّاعر قصيدته بالجدّ والاحتيال واتّخاذ الأسباب من أكل حياة كريمة، وإلّا فإنّ مصيره الضّياع وعيش حياة ذليلة.

البنية الثّانيّة: (البيت الثّاني والبيت الثّالث).

في هذين البيتين يستدرك كلامه الّذي قاله في البيت الأوّل بالأداة "لكن" وينوّه إلى أمر يجب أن يتّصف به أيّ امرئ وهو اعداد ما تيسّر من الخطط والفخاخ حتّى إذا قُبِض عليه وجد ما يخلّص فلا يقف مكتوف الأيدي، فإذا سُدّ بابٌ في وجهه فتح آخر ونفذ منه.

البنية الثّالثة: (البيت الرّابع).

يذكر فيه قبيلة لحيان الّتي قبضت عليه وحيدا خاليّا في جبل وسط غارٍ، وفي هذا البيت وكأنّه ينبّه القارئ ويجهّزه لتلقّي أحداث القصّة بمحاولة جذب انتباهه بأن قال: "فإنّك لو قاسيْتَ بِاللّصْبِ حِلَتِي بلحيَانَ" وهذا سؤال جوابه ما كنت فاعلًا وهذا الجزء بالذّات يثير القارئ ويجعله يكمل لمعرفة الحيلة الّتي احتال بها على قبيلة لحيان.

البنية الرّابعة : (البيت الخامس وحتّى البيت التّاسع).

بعد أن حوصر تأبّط شرّا داخل الغار بدأ بكسب الوقت، بأن خيّر لحيان بين خيارين إمّا يخرج عليهم فيقتلهم وإمّا يقتلوه، ولكنّهم رفضوا ذلك وطلبوا منه ما جناه من عسل ثمّ قتله، وبالتّأكيد رفض ذلك لأنّه كان قد أعدّ عدّته وجهّز منفذه قبل أن يصلوا إليه، بأن حفر حفرة آخر الغار، توجّه صوبها وألقى عليها العسل الّذي جناه وانزلق من خلالها وبهذا نجا من القتل بالاحتيال والمكر وبذكائه وتجاربه الّتي علّمته ألّا يذهب إلى مكان يُحاصرُ فيه فلا يجد وسيلة للهرب وإنقاذ نفسه.

البنية الخامسة: (البيت العاشر).

حينها فهم الخطر الّذي أحدق بهن ولكن لحسن حظّه لم تكن المرّة الأولى، وكم من مرّة نجا من شراك العدوّ بفضل تجاربه ودهائه.

2.3 التّغريض (التّيمة):

يعرّف براون ويول التّيمة بأنّها: «نقطة بداية قول ما» (محمّد، 1991م)؛ ونقطة بداية قول ما أو نصّ ما تتمثّل في العنوان باعتباره أوّل عتبة يقابلها أو يصادفها القارئ أثناء قراءته أو تحليله للنّصوص لأنّه هو الّذي يحدّد موضوع الخطاب، ونستدلّ على ما سلف ذكره بما ورد في كتاب "محمّد خطابي": «إنّ مفهوم التّغريض ذو علاقة وثيقة مع موضوع الخطاب ومع عنوان النّص، تتجلّى العلاقة بين العنوان وموضوع الخطاب في كون الأوّل "تعبيرا عن الموضوع" لكن الطّريقة المُثلى للنّظر إلى العنوان في رأي

الباحثين هي اعتباره؛ وسيلة قويّة للتّغريض [للأنّنا] حين نجد اسم شخص مغرّضا في عنوان النّص نتوقّع أن يكون ذلك الشّخص هو الموضوع» (محمّد، 1991م)؛ وبذلك نستطيع أن نقول بأنّ العلاقة بين التّغريض وبين موضوع الخطاب هي علاقة تكامليّة يكمّل أحدهم فيها الآخر.

أمّا " فان دايك " فيرى التّيمة بأنّها «تُهيّء القارئ أو السّامع لأن يَبنيَ التّفسير الأكبر "الصّحيح" للنّص: فهو يتلقّى بذلك وسيلة معيّنة لتخمينه، يمكن من خلالها أن يعالج النّص (تون، 2000م)».

لذا فالتّيمة «هي نواة مضمون النّص، حيث يَسِمُ مسار الأفكار القائم على موضوع أو عدّة موضوعات في نصّ ما (أي الأشخاص، والأحوال، والوقائع، والأفعال، والتّصوّرات...إلخ)» (كلاوس، 1431هـ- 2010م)، ويتحقّق موضوع النّص بوصفه (نواة المضمون) إمّا في جزء معيّن في النّص (مثلا العنوان أو جملة معيّنة) أو تجرّده من مضمون النّص وذلك عن طريق اعتماد العبارة المُفسّرة أو المُوجزة المختصرة (كلاوس، 1431هـ- 2010م)، وبالتّالي أيّ تكرار للأسماء أو الأماكن أو الأحوال يكون الغرض منها إيصال القارئ إلى الموضوع الأساسي والرّئيسي الّذي ينوي تبليغه.

بما أنّ موضوع الخطاب تربطه صلة وثيقة بالتّغريض ارتأينا أن نحلّل القصيدة نفسها الّتي طبّقنا عليها في "موضوع الخطاب" والمتمثّلة في قصيدة تأبّط شرّا (شرّا، 1404هـ- 1984م):

كما أسلفنا الذّكر أنّ التّغريض يحدث عن طريق العنوان أو بالكلام الأول الذي يرد في الخطاب، وبما أنّ قصائد الصّعاليك لم تُعنون من طرف قائليها، سنعمل على تغريض الموضوع انطلاقا من مطلع القصيدة، وفي قصيدة تأبّط شرّا نرى أنّ الخطاب افتُتِح بالاحتيال والجدّ، وبالتّالي سنبحث في العلاقة بين بداية القصيدة ومحتواها العامّ الّذي جاء شارحا ومُفسّرا لتلك البداية، فمن خلال هذه الأخيرة نستطيع أن نُخمّن موضوع الخطاب الّذي يتضمّن الحديث عن ضرورة احتيال المرء والعمل بجدّ لمجابهة الصّعاب وإلّا فإنّه سيعاني ويشقى في حياته، فأخو الحزم من أعدّ حيلته قبل أن يفوت الأوان على أن يكون متبصّرا لما سيحلّ به مستقبلا، فذلك الرّجل الّذي قارعه الدّهر بمصائبه ونوائبه حتّى أصبح متفنّنا في حيله، وإذا سُدّت أمامه كلّ السّبل لا بدّ من أن يجد مخرجا ينفذ منه.

في البيت الرّابع لجأ الشّاعر إلى التّكرار الّذي يهدف إلى تغريض البداية حين قال: (وإنّك لو قَاسيْتَ باللّصبِ حيلَتِي)، يريدُ القول أنّك لو قاسيت ما قاسيته في معالجة الهرب من بني لحيان والاحتيال عليها لما ضاق بك ما عشت موقف ولا سدّ عليك منفذ (شرّا، 1404هـ- 1984م)، ثمّ راح يذكر أحداث الحيلة الّتي احتال بها على بني لحيان ابتداء من البيت الخامس وحتّى البيت التّاسع، فبعد جمعه للعسل من غار في بلاد هذيل رصده قوم بني لحيان وأغاروا عليه وطلبوا منه الخروج والاستسلام لقتله بالإضافة إلى تسليمهم ما جناه من عسل، فأجابهم أتقتلونني وتأكلون ما جنيت؟ لا والله لا أفعل وقال لهم اختاروا

منّي إحدى خلّتين: إمّا خرجت عليكم فقاتلتكم، فإن قتلتموني أدركتم بثأركم وإن أَفْلتُّ أفلَتّ، وإمّا أطلقوا سراحي فلا أسيئ لكم مرة أخرى (شرّا، 1404هـ- 1984م)، وكان جوابهم الرّفض، ولكن كلّ ذلك كان حيلة منه لكسب الوقت لأنّ دهاءه ومكره جعلاه يجهّز منفذا على جنب الغار نظر إليه ونفذ منه بعد أن أعانه العسل الّذي جمعه في الانزلاق من تلك الفجوة، ويتجلّى ذلك في قوله:

وَأُخرى أُصَادي النَّفْسَ عَنْهَا، وَإنَّهَا لَخُطّةُ حَزمٍ إنْ فَعَلتُ، وَمصدرُ.

فالشّاعر استبدل لفظ الحيلة بلفظ يحمل الدّلالة نفسها حين قال: "خطّة حزم"، وغرّض لها بالضّمير عندما أحال إلى الخطّة الأخرى الّتي نفذ بها بجلده من أعدائه إحالة قبليّة حين قال: (وكم مثلها فارقتها)، لذا فالقصيدة في مجملها عبارة عن وصف للحادثة الّتي ألمّت بالشّاعر "تأبّط شرّا" والحيلة الّتي دبّرها هذا الأخير للهروب من شراك العدو والتّملّص من الموقف، ما جعل القصيدة منسجمة عن طريق تغريض الشّاعر لوجوب احتيال المرء وتجهيزه للعُدة المناسبة قبل أن تقع السّاق في السّاق، وربط هذه البداية بأحداث القصّة الّتي تمثّلت حبكتها في الحيلة الّتي دبّرها الشّاعر للعيش.

3.3 المعرفة الخلفيّة (التّأويل):

يذهب "براون" و"يول" إلى أنّ «المعرفة الخلفيّة الّتي نملكها كمستعملين للّغة تتعلّق بالتّفاعل الاجتماعي- الثّقافي- إنّ هذه المعرفة العامّة للعالم لا تدعم فقط تأويلنا للخطاب، وإنّما تدعم أيضا تأويلنا لكلّ مظاهر تجربتنا» (محمّد، 1991م)، وبالتّالي فإنّ معرفتنا بالعوالم تدعم قدرتنا على التّواصل وعلى استعمال اللّغة وحتّى على التّرجمة من لغة إلى لغة أخرى، ذلك أنّ كلّ نصّ يرتبط بسياق معرفيّ خاصّ به ويصبح أمر نقله من لغة إلى أخر محفوفا بالمخاطر لذلك يحتاج قارئ النّص إلى حمولة معرفيّة حتّى يتمكّن من مفاتيح النّص، وعليه أن يتزوّد بأدوات إجرائيّة أكثر نضجا ورقيّا (محمّد ت.، 2000م). فمن توفّرت فيه تلك الشّروط مكنّته المعرفة الخلفيّة بالعالم بأن يتمتّع خلفيّة مشبّعة بالتّعويضات **Defaults** والتّفضيلات **Preferences** والاحتمالات **Contingencies** والتّفاعلات **Interactioons** بالنّسبة لكلّ حكم يحكمه الإنسان، ويمكن الوصول إلى المواقف الاتّصاليّة بواسطة الحواس، وهي ذات علاقات ثريّة بالتّجارب الماضيّة، كلّ هذه الأمور الخارجيّ لا مكان لها في المنطق (روبرت، 1418هـ- 1998م).

ويرتبط بمسألة المعرفة الخلفيّة " التّناص"، وهو«علاقة تجمع بين نصّين فأكثر، وهي تؤثّر في طريقة قراءة النّص الّذي تقع فيه آثار النّصوص الأخرى» (النّاصر، 1991م). ويقول محمّد مفتاح في تعريف التّناص: «إنّه فسيفساء من نصوص أخرى أُدمجت فيه بتقنيّات مختلفة ممتصّ لها يجعلها من عنديّاته وبتصييرها منسجمة مع فضاء بنائه ومع مقاصده/ محوّل لها بتمطيطها أو تكثيفها بقصد

مناهضة خصائصها ودلالاتها، وبهدف تعضيدها» (مفتاح، د.ت)، وعليه فإنّ تعالق النّصوص بعضها ببعض وولادتها من جديد عن طريق التّناص ما هو إلّا وجه من أوجه معرفتنا بالعالم.

هناك مواضيع استرعت انتباه الشّعراء الصّعاليك، أو بالأحرى فرضتها عليهم طبيعة العيش وصعوبة المناخ والتّضاريس، وأشهر المواضيع الّتي طرقت شعر الصّعاليك هي: الموت، الصّبر على الجوع والفقر، طلب الغنى وشرف المكانة، وصف الإبل، قلّة النّوم ليلا، وفيما يلي تفصيل لكلّ موضوع من هذه المواضيع بالاعتماد على الاستشهاد من أشعار الصّعاليك.

أوّلا: الموت:

عبّر الشّعراء الصّعاليك عن الموت بمختلف التّعابير، حتّى لا تكاد تخلو منه قصيدة أو مقطوعة، كون أنّ قصائدهم كانت تتّسم بطاقة زائدة وهالة سوداء مشحونة بالعنف والحرب والدّم والحزن والقلق والتّرصّد، وكلّ ذلك ما هو إلّا انعكاس للحياة والواقع الّذي عاشوه وهذا انعكس سلبا على نفسيّتهم وشخصيّتهم وحتّى على توجّههم وميولاتهم .

وكلّ صعلوك عبّر عن الموت بمنظوره الخاصّ، فهناك من أجاز الموت للّذي يسعى ويبذل الجهد في سبيل محاربة الأعداء وفي سبيل طلب الغنى فإذا مات فإنّه يموت ميتة حميدة، وهنا تتجلّى قوّة نفوس هذه الطّائفة في استهانتهم بالحياة بغية الوصول إلى غايتهم وهدفهم من الحياة، ألا وهو ضمان المكانة الرّاقية في المجتمع وفرض أنفسهم بالقوّة حتّى لا يحتقرهم غيرهم، أو من هم أكثر منهم شأنًا، ومثل ذلك قول "عروة بن الورد" (عروة، 1418هـ- 1998م):

وَمَا طَالِبُ الحَاجَاتِ، مِنْ كُلِّ وجْهَةٍ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّـــرَا.
فَسِرْ فِي بِلادِ اللهِ، والْتَمِسْ الغِـــنَى، تَعِشْ ذَا يَسَارٍ، أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا.

وهناك من عبّر عن الموت باستهزاء ولا مبالاة وكأنّه لا يهمّه أمره أمثال الشّنفرى وتأبّط شرّا، ومن ذلك قول الشّنفرى (بُرّاق، 1417هـ- 1996م):

إِذَا مَا أَتَتْنِي ميتَتِي لَـــمْ أُبَالِهَـــــا وَلَمْ تُذْرِ خَالَاتِي الدُّمُوعَ وعَمّـــتِي.

وهناك من اعتبره حتم لا مفرّ منه، فإذا جاء أجله فإنّه آتٍ لا محالة مثل قول تأبّط شرّا (بُرّاق، 1417هـ- 1996م):

وَأَجْمَلُ مَوتِ المَرْءِ إِذْ كَانَ مَيِّتًا وَلَا بُدَّ يَوْمًا، مَوْتهُ وهُوَ صَابِرُ.

ثانيًا : الصّبر على الجوع والفقر:

كما أسلفنا الذّكر في المدخل أنّ الجوع والفقر كانا من أبرز الأسباب الّتي أدّت إلى الصّعلكة، وبهذا فقد كثر نظم الأبيات في هذا الموضوع، فكنّا نرى الشّعراء الصّعاليك كثيرا ما يروون لنا ما كان

يصيبهم جرّاء الجوع، وبالرّغم من ذلك لم يضعفوا ولم يستكينوا ولم يرضخوا للحياة الّتي كانت تريد إذلالهم واحتقارهم، ومن ذلك قول عروة بن الورد يصوّر صبره على الجوع وتفضيله لنبت الأرض ومائها على خضوعه لقومه (عروة، 1418هـ- 1998م):

1- إِذَ آذَاكَ مَالِكُ، فَامْتَهِنْـــــهُ لِجَادِيه، وَإِنْ قَرَعَ المـــــرَاحُ.
2- وَإِنْ أَخْنَى عَلَيْكَ، فَلَمْ تَجِدْهُ، فَنَبْتُ الأَرْضِ وَالمَاءُ القرَاحُ.
3- فَرَغْمُ العَيْشِ إِلْفُ فِنَاءِ قَومٍ، وَإِنْ آسُوكَ، وَالمَوْتُ الروَّاحُ.

وفي لاميّة العرب الّتي تصوّر صورة دقيقة وكاملة لحياة الصّعاليك في العصر الجاهلي، فالشّاعر الشّنفرى رسم صورة لذلك الجوع الّذي يعتري الإنسان فيرهقه ويصيبه بالهزال، ولكنّ نفسه الأبيّة ترفض الانصياع جاعلة من الصّبر والتّحمّل سلاحا لها، ومن ذلك قوله (بُرّاق، 1417هـ- 1996م):

1- وَأَغْدُو خَمِيصَ البَطْنِ لَا يَسْتَفِزُّنِي إِلَى الزَّادِ حِرْصٌ أَوْ فُؤَادٌ مُوَكَّـــــلُ.
2- أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَـــتَّى أُمِيتُـــهُ وَأَضرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْـحًا فَأُذْهَلُ.
3- وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلَا يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَـــــوَّلُ.
4- وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَـــــدَيَّ وَمَأْكَـــــلُ.
5- وَلَكِنَّ نَفْسًا مـــــرَّةً لا تُقِيـــم بـي عَلَى الذَّأْمِ إِلَّا رَيْثَمَـــــا أَتَحَـــــوَّلُ.

ثالثًا: طلب الغنى وشرف المكانة:

من المواضيع المهمّة الّتي جمعت بين تفكير الصّعاليك هي سعيهم لطلب الغنَى وتحقيقه، فقد كان من بين الأسباب الّتي دفعتهم إلى الخروج عن المجتمع القبلي رفضا للفقر والذّلّ والمهانة، ونجد هذا النّوع من المواضيع يكثر عند "عروة بن الورد" ومن ذلك قوله (عروة، 1418هـ- 1998م):

1- دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيـرُ.
2- وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِـمْ، وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخِيرُ.
3- وَيقْصِيهِ النَّدَى، وَتَزْدَرِيـهِ حَلِيلَتُهُ، وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيـرُ.

يقول مالك بن حريم الهمذاني (مفزع اللّيل) في أبيات مشابهة لما عرضه علينا "عروة بن الورد" تمثّل حكما يجب على الإنسان الاقتداء بها كي يعيش كريما (تمام، 1418هـ- 1998م):

1- أُنْبِئْتُ وَالأَيَّامُ ذَاتُ تَجَـــــارُبٍ وَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا لَسْتَ تَعْلَمُ.
2- بِأَنَّ ثَرَاءَ المَالِ يَنْفَعُ رَبَّـــــهُ وَيَثْنِي عَلَيْهِ الحَمْدَ وَهُوَ مُذَمَّـمُ.
3- وَإِنَّ قَلِيلَ المَالِ لِلْمَرْءِ مُفْسِـــدٌ يَخُزُّ كَمَا حزَّ القَطِيعُ المُـحَرَّمُ.
4- يَرَى دَرَجَاتِ المَجْدِ لَا يَسْتَطِيعُهَا وَيَقْعُدَ وَسْطَ القَوْمِ لَا يَتَكَلَّـــمُ.

رابعًا: وصف الإبل:

ليس غريبا أن يصف الرّجل العربي في العصر الجاهلي ناقته؛ لأنّهم كانوا يعتمدون عليها في كلّ أمور حياتهم، فقد كانت ملاذهم ووسيلتهم الوحيدة في العيش، فقد اتخذوا من لحومها وألبانها طعاما يخفّفون به وطأة الجوع، واتّخذوا من أوبارها لباسا وخياما تقيهم الحرّ والبرد، بل وأعانتهم حتّى في ترحالهم وحروبهم الّتي لا تتوقّف، فمثلا ها هو "الأعلم الهذلي" يصف إبله أيّما وصف حين قال: (جعفر، 1428هـ- 2008م)

1- فَشَايِعْ وَسْطَ ذَوْدِكَ مُقَبْئِـــيًا لِتَحْسَبَ سَيِّدًا صُنُبَعًّا تَنُولُ.
2- عَشَنْزَرَةٌ جَوَعِرُهَا ثَمَـــــانٍ فُوَيْقَ زِمَاعِهَا وَشْمٌ جُحـولُ.
3- تَرَاهَا الضَّبْعُ أَعْظمهُنَّ رَأْسًا جَرَاهِمَةٌ لِهَاجرَةٌ وَثـــــيِلُ.

ويقول السّليك بن السُّلكة حين اشتدّ به الجوع يصف الإبل (بُرّاق، 1417هـ- 1996م):

1- وَعَاشِيَةٍ رَاحَتْ بِطَانًا ذَعَرْتُهَا بِسَوْطٍ وَسْطُهَا يَتَسَيَّـفُ.
2- كَأَنَّ عَلَيْهِ لَوْنَ بُرْدٍ مَحَبــرًّا إِذَا مَا أَتَاهُ صَارِمٌ يَتَلَهَّفُ.

خامسًا: عدم النّوم ليلا:

هذا الموضوع بالذّات اشترك فيه كل الصّعاليك؛ لأنّ اللّيل كان هاجسا بالنّسبة للصّعلوك واتّخذ لديه مفهوماً آخر، فالمعلوم أنّ اللّيل هو لباس للنّوم والرّاحة والطّمأنينة وترك الهموم جانبا، ولكن هذا ليس بالنّسبة إلى الصّعلوك الّذي يتّخذ منه وسيلة للتّرصّد والاصطياد والاغتنام، فهو لا ينام اللّيل إلّا قليلا، ومن ذلك قول عمرو بن برّاق: (بُرّاق، 1417هـ- 1996م)

1- تَقُولُ سُلَيْمَى لَا تَعَرَّضْ لِتَلْفَـةٍ وَلَيْلُكَ مِنْ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائـــمُ.
2- وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلَّ مَالِه حُسَامٌ كَلَوْنِ المِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمُ.

ويقول تأبّط شرّا: (شرّا، 1404هـ- 1984م)

قَلِيلُ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّهِ دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يلْقَى كَمِيًّا مُقَنَّعَا.

4.3 السّياق:

ربط علماء اللغة القدماء السّياق بعلم المعاني وجعلوه من أهمّ مباحث اللّغة العربيّة، ذلك لأهمّيّة الدّور الّذي يلعبه في فهم المعاني والكشف عنها، ومن العلماء من تنبّه إلى السّياق ولكنّهم لم يستعملوه بالمصطلح المنصوص عليه، ولكنّهم فهموا معناه وقالوا مقولتهم الشّهيرة "لكلّ مقام مقال" و "رعاية مقتضى الحال"، وها هو "ابن قتيبة" (ت276هـ) يورد المعنيين في قول له: «فالخطيب منَ العرب إذا ارتجلَ كلاما من نكاح، أو حَمالة، أو تحضيض، أو صلح، وما أشبه ذلك، لم يأت به من واد واحد، بل يفتنُّ:

فيختصر تارة إرادة التّخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرّر تارة إرادة التّوكيد، ويُخفي بعض معانيه حتّى يغمض على أكثر السّامعين، ويكشف بعضها حتّى يفهمه الأعجمين، ويشير إلى الشّيء ويكنى عن الشّيء. وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحَفْلِ، وكثرة الحشد وجلالة المقام» (محم، 1393هـ- 1973م)، ومن الّذين تفطّنوا للمصطلح وضمّنوه مدوّناتهم "ابن جني" ومن ذلك قوله:«وليس يجوز أن يكون ذلك كلّه في لغة لهم، وعند كلّ قوم منهم، حتّى لا يختلف ولا ينتقض، ولا يتهاجر على كثرتهم، وسعة بلادهم، وطول عهد زمان هذه اللّغة لهم، وتصرّفها على ألسنتهم، اتّفاقا وقع، حتّى لم يختلف فيه اثنان، ولا تنازعه فريقان، إلّا وهم له مريدون، وبسياقه على أوضاعهم فيه معنيّون؛ ألا ترى إلى اطّراد رفع الفاعل ونصب المفعول...وغير ذلك من حديث التّثنية والجمع...وما يطول شرحه؛ فهل يحسُن بذي لبّ أن يعتقد أنّ هذا كلّه اتّفاق وقع، وتوارد اتّجه!» (الفتح، د.ت).

ويعرّفه "فان دايك" «بأنّه إعادة بناء نظري لعدد من ملامح السّياق الاتّصالي، تلك الملامح الّتي تشكّل جزءا من القيود الّتي تجعل المنطوقات بوصفها أحداثا كلاميّة مصيبة» (تون، 2000م).

وقد حدّد "هايمس" خصائص السّياق وهي: (محمّد خ.، 1991م)

أ- المرسِل: وهو المتكلّم أو الكاتب الّذي ينتج الخطاب أو النّص.

ب- المتلقّي: وهو المستمع أو القارئ الّذي يتلقّى القول.

ت- الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

ث- الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.

ج- المقام: وهو زمان ومكان الحدث التّواصلي وكذلك العلاقات الفيزيائيّة بين المتفاعلين بالنّظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه.

ح- القناة: كيف يتمّ التّواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: كلام، كتابة، إشارة.

خ- النّظام: اللّغة أو اللّهجة أو الأسلوب اللّغوي المستعمل.

د- شكل الرّسالة: ما هو الشّكل المقصود: دردشة، جدال، عظة، خرافة...

ذ- المفتاح: يتضمّن التّقويم، هل كانت الرّسالة موعظة حسنة أو شرحا للعواطف وغيرها.

ر- الغرض: أي ما يقصده المشاركون وينبغي أن يكون نتيجة لحدث التّواصلي.

ويمكننا تحديد هذه الخصائص من خلال قصائد الصّعاليك معتمدين في ذلك أحيانا على ما وصلنا من أخبار الرّواة.

النّموذج الأوّل: قال عمرو بن عجلان (ذو الكلب الهذلي) (محمّد خ.، 1991م):

1- أَلَا قَالَتْ غُزَيَّةُ إِذْ رَأَتْـــــنِي أَلَمْ تُقْتَلْ بِأَرْض بَـنِي هِـــلَالِ.

2- أَسَرَّكِ لَوْ قُتِلْتُ بِأَرْض فَـــهْمٍ وَكُلٌّ قَدْ أَبَـــأَتِ إِلَى ابْتِهَـــالِ.
3- فَإِمَّا تَثْقَفُونِي فَاقـــــتُلُـــــونِي وَإِنْ أَثْقَفْ فَسَوْفَ تَـــرَوْنَ بَـــالِي.
4- فَأَبْرَحُ غَازِيًا أُهْـــدِي رَعِيـــلًا أَوُمُ سَـــوَادَ طَـــــوْدٍ ذِي بِخَـالِ.
5- بِفِتْيَانٍ عَمَارِطِ مِـــنْ هُذَيْـــلٍ هُمُ نَيَّقُونَ آنَـــــاسَ الحِـــلَالِ.
6- وَأَبْرَحُ فِي طـــوَالِ الدَّهرِ حَـتَّى أُقِيمَ نِسَاءَ بحلـــــةَ بِالنِّعَـــالِ.
7- وَثُجَّرًا كَالرِّمَاحِ مُـــسَيَّـــــرَات كُسِينَ دَوَاخِلَ الرِّيشِ النُّسَـــــالِ.
8- تَمَنَّانِي وَأَبْيَضَ مَشْـــــرفـــيًّا أُشَاحَ الصَّدْرِ أُخْلَصَ بِالصِّقَـالِ.
9- وَأَسْمَرَ مَجْنَأً مِـــنْ جِلْدِ ثَـــوْرٍ أَصَمّ مُغَلَّلًا ظُبَّـــةَ النِّبَـــــالِ.
10- وَإِيفَاقِي بِسَهْمِي ثُمَّ أَرْمِـــــي وَإِلَّا فَالأُبَاءَةُ فَاشْتِمَـــــــالِي.
11- مَنَتْ لَكَ أَنْ تُلَاقِينِي الـمَنَايَا أُحَادَ أُحَادَ فِي الشَّهْرِ الحَـــلَالِ.
12- وَمَا لَبْثُ القِتَالِ إِذَا التـــقَيْنَـــا سِوَى لَفْتِ اليَمِينِ عَلَى الشِّمالِ.
13- وَفِي قَعْرِ الكِنَانَةِ مُـرْهَفَـــاتٌ كَأَنَّ ظِبَاتِهَا شُوكُ السِّيَـــــالِ.
14 -يسُلُّونَ السُّيُوفَ لِيَقْتُلُـــونِـــي وَقَدْ أَبْطَنْتُ مُعدِلَةٌ شِمَـــــالِي.
15- وَمَرْقَبَةٍ يُحَارُ الطَّرْفُ فِيهَـــا إِلَى شَمَّاءَ مُشْرِفَةِ القِـــــذَالِ.
16- أَقَمْتُ بِرِيدِهَا يَوْمًا طَوِيـــلًا وَلَمْ أُشْرِفْ بِهَا مِثْلَ الخَيَـــالِ.
17- وَلَمْ يَشْخَصْ بِهَا شَرَفِي وَلَكِنْ دَنَوْتُ تَحَدُّرَ المَـــاءِ الـــزُّلَالِ.
18- وَمَقْعَدُ كُرْبَةٍ قَدْ كُنْتُ فِيهَـــا مَكَانَ الإِصْبَعَيْنِ مِنَ القِبَـــالِ.
19- فَلَسْتُ لِحَاصِنٍ إِنْ لَمْ تَرونِي بِبَطْنِ صَرِيحَةٍ ذَاتِ النِّجَـــالِ.
20- وَأُمِّي قِينَةٌ أَمْ لَمْ تـــــرُونِي بِعُورِش تَحْتَ عَرْعَرِهَا الطِّـــوَالِ.

المرسل: عمرو بن عجلان.

المتلقّي: جعل الشّاعر لقصيدته متلقيّان هما: "غُزيّة" و"قبيلة فهم"

الموضوع: نُظمت هذه القصيدة في قبيلة فهم.

المقام: العصر الجاهلي.

القناة: كلام جرى تدوينه من طرف الرّواة.

النّظام: اللّغة العربيّة، ويمكننا القول لغة الصّعاليك.

شكل الرّسالة: قصيدة شعريّة طويلة.

المفتاح: جعل المتلقي يتأثّر بقوّته وخوضه للصّعاب دون أن يخافها أو يهابها.

الغرض: بثّ الخوف والرّعب في قبيلة فهم عن طريق إرهابهم وإظهار قدرته على مواجهتهم حتّى لو كان وحيدا وهم جماعة.

من خلال هذه القصيدة يمكننا أن نطرح مجموعة من التّساؤلات التّاليّة: منْ يتكلّم؟ مع من؟ متى؟ أين؟ لماذا؟ (محمّد خ.، 1991م)، والإجابة عن هذه الأسئلة تكمن داخل القصيدة ذاتها، فالمتكلّم محال إليه بضمير المتكلّم في (رأيتني، قلتُ، تثقفُونِي، اقتلوني)، فذات الشّاعر "عمرو بن عجلان" حاضرة، وإجابة السّؤال مع من يتكلّم؟ فهنا نستطيع كما وضّحنا سابقا أن نرصد عنصرين أشركهما الشّاعر في العمليّة التّخاطبيّة وهما "غزيّة" و"قبيلة فهم"، فهل من عنصر ثالث مُوجّه له الخطاب؟ نقول نعم، لأنّ القصيدة لم تُنظم كي يسمعها شخصين وإنّما هي موجّهة للمجتمع الّذي كان يعيش فيه قائل القصيدة، وكذا مُوجّهة إلى كلّ متلقّ صادف وقرأ هذه القصيدة، وفيما يخصّ الإجابة عن السّؤال متى؟ فهنا نستطيع تحديد الحقبة الزّمنيّة وهي العصر الجاهلي، أي قبل ظهور الإسلام، ذلك أنّنا لا نستطيع تحديد زمنًا معيّنا لأنّه لم يرد ذكره في القصيدة .

وإجابة السّؤال أين؟ نقول أنّ في القصيدة إشارات لأماكن عدّة كأرض بني هلال، وأرض فهم، وعورشَ، وهذه كلّها أماكن لازمها حقل دلاليّ واحد دلّ على القتل والقتال في قوله: (قتلت، تقتل، تقتلوني، قَتلتُ، غازيا، ثجّرا كالرّماح، أشاح الصّدر، إيفاقي بسهمي...)، ويأخذنا هذا الحقل الدّلالي للإجابة عن السّؤال لماذا؟ وهنا حديث عن غرض أو مقصديّة الشّاعر؛ فممّا لا شكّ فيه أنّه نظم هذه الأبيات فخرًا واعتزازا بنفسه هذا أوّلا، ثانيّا قال هذه الأبيات من أجل معاتبة "غزيّة" الّتي ظنّت أنّه لاقى حتفه على أرض بني هلال، بحيث نلمح بعضا من السّخريّة والتّصغير من مقام الشّاعر، لذا ردّ عليها بهذه الأبيات الّتي أراد منها أن تسمعها وذلك للبرهنة على قوّته وبسالته ورباطة جأشه، أمّا ثالثًا فهو يريد أن تصل هذه الأبيات مسامع قبيلة بني فهم وإبلاغهم ما يستطيع فعله وحده، وأنّه ليس من السّلاح فالسّيف خليله والرّمح صاحبه، والسّهم ملازم له، فمن أراد قتله وجدها أمامه تقطع رقابهم وتخترق صدورهم، كما أراد أيضا أن يعلم كلّ من يعيش معه على أرض واحدة وكلّ من يتربّص به سوءا أنّه حاضر لصدّهم والإطاحة بهم، بل وحتّى أنّه حلف على ذلك باسم أمّه "قنيّة ."

النّموذج الثّاني: قال تأبّط شَرّا (الفرج، 1415هـ- 1994م):

أَلَا هَلْ أَتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ حَلِيلَهَـــا تَأَبَّطَ شَرًّا وَاكْتَنَـــيْتُ أَبَـــــا وَهْـــبِ؟
فَهَبْهُ تَسَمّى اسْمِي وَسَمَّانِي اسْمَـهُ فَأَيْنَ لَهُ صَبْرِي عَلَى مُعْظَمِ الخَطْـــبِ؟!
وَأَيْنَ لَهُ بَأْسٌ كَبَأْسِي وَسَوْرَتِـــي؟ وَأَيْنَ لَهُ فِي كُـــلِّ فَادِحَـــةٍ قَلْـــبِـي؟!

المُرسل: الشّاعر تأبّط شرّا.

المتلقي: زوجة الثّقفي، هذا ما وصلنا من ديوان تأبّط شرّا ومن أخبار الرّواة.

الموضوع: نُظمت القطعة الشّعريّة في رجل يُسمّى أبو وهب احتال عليه تأبّط شرّا فأعطاه اسمه على أن يخافه النّاس ويهابوه وكان من الرّجل أن وهبه كنيته، وحلّته وماله.

المقام: العصر الجاهلي.

القناة: كلام ميّزه أسلوب الاستفهام ألقاه على زوجة الثّقفي.

النّظام: اللّغة العربيّة، وكانت لغة مفهومة واضحة يستوعبها من عاش في عصره ومن جاء بعده.

شكل الرّسالة: قطعة شعريّة مؤلّفة من ثلاثة أبيات.

المفتاح: هي قطعة شعريّة تثبت للقارئ نوع الحياة الّتي كان يعيشها الصّعاليك وطريقة التّكسّب الّتي اعتادوها، والقائمة على الاحتيال والغدر، ممّا يجعل المتلقّي في صراع مع نفسه أينفر منهم؟ أم يبرّر لهم نظرا للحياة الضّنكة الّتي عاشوها.

الغرض: أن يُظهر الشّاعر دهاءه ومكره وقدرته على الاحتيال حتّى باسمه وهذا يجسّد لنا ما قاله في مطلع قصيدة أخرى:

إذا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ أَضَاعَ وَقَاسَى أمرهُ وَهُوَ مُدْبِرُ.

ويمكننا من خلال هذه القصيدة أن نحاول الكشف عن الملابسات الخارجيّة الّتي أسّست القصيدة العربيّة عامّة وقصيدة الصّعاليك بشكل خاصّ، فكما أسلف الذّكر أنّ الصّعاليك هم الّذين تمردّوا عن النّظام القبلي وأسّسوا لأنفسهم نظاما خاصّا قائم على السّرقة والاحتيال والإغارة بكلّ أشكالها وأساليبها، وقصائدهم جاءت تعبّر عن هذا النّوع من الحياة، تروي قصصا تضمّ الأحداث الّتي يعايشونها كلّ يوم، فمثلا في هذه القطعة الشّعريّة حكى لنا الشّاعر عن رجل غنيّ غبيّ، حسن الهيئة، فتوجّه إليه بسؤال مفاده: ما السّبب الّذي يجعل النّاس تخافك وتهابك، أجابه شاعرنا: اسمي، فقال له: أهذا فقط؟ قال "تأبّط شرّا" نعم فإذا رأيت أحدًا أخبرته باسمي فارتدّ هاربا خائفا، فاقتنع الرّجل بما قاله ووجد شاعرنا الفرصة سانحة للاحتيال فاحتال عليه بأن وهبه اسمه شرط أن يعطيه الرّجل كنيته وحلّته وماله، وما كان من الرّجل إلّا أن يوافق ويقبل.

لذا فالشّاعر صوّر لنا جزءا من الحياة الّتي كانت معروفة آنذاك، ولكن الغرض من ذلك ليس أن يروي لنا قصّته وحسب وإنّما كانت له مآرب أخرى من بينها التّغنّي بدهائه ومكره اللّامتناه، وهناك مقصد آخر وهو إظهار قوّته وجبروته الّذي انعكس صداهما على اسمه وحده.

4. خاتمة:

وبعد هذا الجهد المتواضع الّذي حاولت من خلاله الكشف عن مدى انسجام وتماسك قصائد الصّعاليك في العصر الجاهلي، توصّلت إلى النّتائج التّاليّة :

عمل الانسجام على التّماسك الدّاخلي (الدّلالي) لقصيدة الصّعاليك، ومن أجل الكشف عن العلاقات الدّلاليّة لا بدّ من متلقّ جيّد يحمل الأدوات الإجرائيّة المناسبة لتحليل البنيّة الخطابيّة.

موضوع الخطاب هو عنصر موجود بالقوّة لأنّه الهدف الّذي يرمي إليه الشّاعر، ولكن لا نستطيع أن نستدلّ عليه إلّا إذا عمل القارئ على تأويله وفكّ شفراته وتقصّي معانيه وإعادة بنائه مستعينا بالنّص.

أفادنا التّغريض في معرفة المواضيع المغرّض لها في قصائد الصّعاليك، والّتي كانت في أغلب الأحيان تدلّ على ذات الشّاعر وتضخّم الأنا عنده، هذا الأنا الّذي يتحرّك داخل القصيدة ليشكّل لنا موضوعا متفرّدا لا يشبه غيره .

تتحكّم المعرفة الخلفيّة في النّص الشّعري، كما أنّها تسهم وبشكل فعّال في جعل القارئ يفهم ويؤولّ النّص، ممّا يضمن العلاقة بينهما.

من أجل البحث عن سياق نصّ ما أو خطاب ما، لا بدّ من التّوجّه إلى المعلومات الّتي يقدّمها ذلك النّص أو ذلك الخطاب، لأنّه هو الّذي يتضمّن كلّ الحيثيّات الّتي تسهم في بناء الخطاب أو النّص، وهو الّذي ينظّم ويؤطّر مكانه وزمانه، ومرسله ومتلقّيه، وقناته ونظامه، وبما أنّ القصيدة العربيّة عامّة وقصيدة الصّعاليك خاصّة جرت أحداثها في عصر ما قبل ظهور الإسلام، في عصر لا يمكننا معرفة طريقة عيش الإنسان وتأقلمه مع الطّبيعة، إلّا من خلال ما وصلنا من أشعارهم ومن أخبار الرّواة، لذلك فإنّ قصيدة الصّعاليك فضلا عن كونها تحمل قيمة لغويّة وجماليّة، وفصاحة عاليّة، فإنّها تمثّل خاصّيّة تاريخيّة تسهم في التّأصيل والتّأريخ لتلك الفترة في شبه الجزيرة العربيّة.

5. قائمة المراجع: طريقة:

ابن جنّي أبو الفتح. (د.ت). *الخصائص*. (محمّد علي النّجّار، المترجمون) مصر: دار الكتب المصريّة المكتبة العلميّة.

ابن قتيبة أبو محم. (1393هـ- 1973م). *تأويل مشكل القرآن*. (السيد أحمد صقر، المترجمون) مصر: مكتبة دار التّراث القاهرة.

أبو تمام. (1418هـ- 1998م). *ديوان الحماسة*. (أحمد حسن، المترجمون) لبنان: دار الكتب العلميّة بيروت.

الأصفهاني أبو الفرج. (1415هـ- 1994م). *الأغاني*. لبنان: دار إحياء التّراث العربي بيروت.

الشّاوش محمد. (1421هـ- 2001م). *أصول تحليل الخطاب في النّظريّة النّحويّة العربيّة تأسيس"نحو النّص"*. تونس: المؤسّسة العربيّة للتّوزيع.

الشّنفرى ويليه السّليك بن السُّلكة وعمرو بن بُرّاق. (1417هـ- 1996م). *الدّيوان*. (ميل بديع يعقوب، المترجمون) بيروت: دار الكتاب العربي.

العيّاشي منذر. (2004م). *العلاماتيّة وعلم النّص*. المغرب: المركز الثّقافي العربي.

برينكر كلاوس. (1431هـ- 2010م). *التّحليل اللّغوي للنّص مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج*. (سعيد حسن بحيري، المترجمون) مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع.

بن الورد عروة. (1418هـ- 1998م). *الدّيوان، تح. أسماء أبو بكر محمّد*. لبنان: دار الكتب العلميّة بيروت.

تأبّط شرّا. (1404هـ- 1984م). *الدّيوان*. (علي ذو الفقار شاكر، المترجمون) دار الغرب الإسلامي.

تحريشي محمّد. (2000م). *أدوات النّص دراسة*. الإتّحاد الكتّاب العرب.

حسن محمّد عبد النّاصر. (1991م). *نظريّة التّواصل وقراءة النّص الأدبي*. القاهرة: المكتب المصري.

خطابي محمّد. (1991م). *لسانيّات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب*. بيروت: المركز الثّقافي العربي.

دي بوجراند روبرت. (1418هـ- 1998م). *النّص والخطاب والإجراء*. (تمام حسان، المترجمون) القاهرة: علا للكتب.

شنبل عزّة. (1430هـ- 2009م). *علم لغة النّص النّظريّة والتّطبيق*. (سليمان العطّار، المترجمون) القاهرة: مكتبة الآداب.

فان دايك تون. (2000م). *النّصّ والسّياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتّداولي*. (عبد القادر قنيني، المترجمون) إفريقيا الشّرق.

محمّد مفتاح. (د.ت). ، *()، تحليل الخطاب الشّعري إستراتيجيّة التّناص*. بيروت: دار التّنوير للطّباعة والنّشر.

نور الدّين حسن جعفر. (1428هـ- 2008م). *موسوعة الشّعراء الصّعاليك من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث*. لبنان: رشاد برس للطّباعة والنّشر بيروت.